

## علم الاقتصاد... سؤال في الجوهر

هارفي مانسفيلد

مركز اميريكان انتربرايز

6 أبريل 2009

## A Question for the Economists

By Harvey C. Mansfield

American Enterprise Institute

ترجمة: علي الحارس



هارفي مانسفيلد

أستاذ الشؤون  
الحكومية في جامعة  
هارفارد.

من كبار باحثي معهد  
هوفر في جامعة  
ستانفورد.

من بين جميع المجموعات المتورطة في الأزمة الاقتصادية الحالية لم تستطع حتى الآن غير واحدة منها أن تبقى خارج دائرة الملاحظة. ألا وهي خبراء الاقتصاد. فهم سادة في علم التنبؤ. لكنهم فشلوا كمجموعة. في التنبؤ. إن لم يكن ذلك على مستوى الفرد. بحصول أزمة قضت على ما يقرب من نصف الثروة المستثمرة في سوق الأسهم وغيره (بالقياس من القمة بالطبع). فلم يكن أداؤهم بأفضل من أداء أعدائهم غير العلميين. ملتقطي الأسهم. الذين يعملون في مجال التنبؤ.

ربما نحتاج إلى نظرة أخرى تتجاوز النماذج الحالية التي يستعملها خبراء الاقتصاد في التنبؤ لتتناول ذات فكرة التنبؤ كهدف للعلوم الاجتماعية. لقد درج خبراء الاقتصاد على عادة التأكيد على أنهم قطعوا شوطاً طويلاً منذ الكساد العظيم<sup>1</sup> في ثلاثينيات القرن الماضي. وأن ذلك الحادث لا يمكن أن يتكرر

ثانية؛ ومع ذلك. فإن الناس يتكلمون فعلاً في هذه الأيام حول إمكانية تكرره. فقد نكون نعلم كيفية التعامل مع الكساد الذي مررنا به مسبقاً. ولكن ماذا عن كساد جديد ذي شخصية

(1) الكساد العظيم: أزمة اقتصادية شديدة أصابت الاقتصاد الأمريكي في ثلاثينيات القرن العشرين. ويعتقد أن انهيار سوق الأسهم عام 1929 كان السبب في تعجيل حدوثها. بدأ الكساد العظيم في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1929 وامتد بعدها إلى باقي دول العالم الصناعي الحديث لينتهي في أوائل أربعينات القرن العشرين. أدى الكساد العظيم إلى انخفاض عدد البضائع وازدياد البطالة بإغلاق المصانع والمصارف فخسر الكثير من الناس وظائفهم ومنازلهم ومدخراتهم. ووصل حجم البطالة في أمريكا عام 1933 إلى أكثر من 15 مليون عاطل (ربع القوة العاملة الأمريكية). من نتائجه المدمرة صعود هتلر إلى هرم السلطة في ألمانيا. (المترجم)

## علم الاقتصاد... سؤال في الجوهر

جديدة لا يمكننا أن نلاحظها؟ أليست أزمنا الحالية جديدة؟ أليست كل أزمة جديدة بما أن عنصر المفاجأة أمر في صميم مفهوم الأزمة؟ فإن كان التنبؤ من النوع الذي يعوّل عليه فحينها نكون مهينين لأي فرصة. وستكون حياتنا خالية من الأزمات وأكثر ثباتا.

يمكننا أن نتناول فكرة التنبؤ من خلال طرح سؤال على خبراء الاقتصاد ليس من عاداتهم أن يلتزموا بالإجابة عليه. وهو: هل من الأفضل للمواطنين في الأزمة الحالية أن ينفقوا أم يدخروا؟ وبصيغة أعم: كيف تنصحون. أنتم خبراء الاقتصاد. بأن نعيش حياتنا؟

إن الإنفاق يبدو هو الخيار الحضاري الذي يجب اتباعه. وهو المبرر للطلبات المختلفة بإقرار خطط التحفيز؛ ولكن أن تدخر فهذا يبدو إجراء احتياطيا. انطلاقا من أن معظم الناس سوف يحصلون على دخل أقل في المستقبل القريب. وربما يكون هذا الدخل أكثر بكثير. فأأي الخيارين أفضل؟

سيبادر القراء من خبراء الاقتصاد بالقول حالا بأن هدفنا هو التنبؤ. ولكن علينا هنا أن لا ندعهم يفلتون من الإجابة على السؤال بهذا الرد المتواضع. فليس من التواضع أن تتبنى هدفا. ثم تفشل فشلا ذريعا في إنجازه. وبعدها تهرب من العواقب. فما فعلوه قبل الأزمة كان أن قاموا بتوفير نماذج حسابية تعد بالتنبؤ بمخاطر استثمارات معينة لكنها في الواقع قامت بإخفاء تلك المخاطر. ألم يشكل هذا التنبؤ الفاسد توصية بهذه الاستثمارات عينها؟ أليس هذا ما يدعى بـ«التواطؤ»؟

لندع اللوم جانبا. ولنر كيف يمارس خبراء الاقتصاد عملية النصح بالفعل دون الإصغاء لما يدعونه. ودون الاقتصار على استثمارات بعينها وإنما على نطاق عام هو: كيف نعيش. من المعلوم أن خبراء الاقتصاد ليسوا محايدين سياسيا؛ فهم بين ليبرالي ومحافظ وبين بين؛ فتحليلاتهم إما أن تكون ذات توجه سياسي منذ بدايتها. وإما تأخذ منحى سياسيا في النهاية؛ وليس من المهم معرفة ذلك فالتحليل بعينه يتناغم مع سياسة بعينها. ولك أن تقول الشيء ذاته عن الأخلاقيات. فخبراء الاقتصاد بعيدون عن الحياد الأخلاقي بقدر ما هم

## علم الاقتصاد... سؤال في الجوهر

بعيدون عن الحياد السياسي. وللميل الأخلاقي عند خبراء الاقتصاد علاقة بعملية التنبؤ ذاتها. وهذا عامل مشترك بينهم سواء أكانوا ليبراليين أم محافظين.

إن خبراء الاقتصاد الذين أعرفهم هم على العموم، كأفراد، يتسمون بالجد والحرص ويشكلون نخبة النخبة في الوسط الأكاديمي، وهم في أمانتهم ومصداقيتهم يمثلون أعلى ما تكون عليه فضيلة الطبقة الوسطى. ولكنهم عندما يجتمعون على أساس أنهم خبراء في الاقتصاد يطلقون العنان لحماس طفولي أرعن على إنجازات ورؤى الاقتصاد كعلم. لكن ما حدث في الأشهر القليلة الماضية كان ينبغي أن يوقفهم وأن يجعلهم يفكرون في ضرورة النظر إلى الاقتصاد من الخارج: كيف يبدو ويتصرف ككيان كامل. وليس هنالك من طريقة من داخل وسط خبراء الاقتصاد، إذ لا توجد طريقة لصياغة معادلة تنبأ على نحو صحيح بفشل معادلات التنبؤ. إن فكرة التنبؤ ذاتها ينبغي أن توضع محل تساؤل؛ فالتنبؤ مصمم للحد من دور الصدفة في حياتنا والتخلص من المفاجآت غير السارة والاستعاضة عنها بالامتنان والرضى، لكنه لا يمتلك هذا التأثير على ما يبدو.

إن الإجراءات ذاتها التي نقوم بها لتوقع المستقبل تجعلنا أكثر اعتماداً على الآخرين وأقل اعتماداً على أنفسنا، وذلك لأن هذه الإجراءات تستند إلى نشر المخاطر التي نكون عرضة لها. وهذا النشر يبدو وكأنه محاولة لتخفيف المخاطر من خلال تشاركتها مع الآخرين، لكن المشاركة توسع شبكة انخراط الفرد من أجل احتواء العوامل الأخرى التي لا يعلم عنها شيئاً؛ ومن دون أن يلاحظ يجد نفسه منضماً إلى سوق الأسهم على نحو يشعر فيه بالأمان وعدم الثبات وانعدام تأثيره الفردي في الوقت نفسه، وتصبح معيشتة وثروته معلقة بحالة «الاقتصاد» المحلي أو حتى العالمي.

لا يتبع الاقتصاد أوامر فرد هنا أو هناك؛ ولو كان كذلك، أو إلى الحد الذي يعيشه اليوم، فسيواجه مخاطرة «أن يدار على نحو جيد»، وهذا هو ما تخاطر به الحكومات حين تحاول التحكم بالاقتصاد لمصلحتنا؛ ومع ذلك لا يتحكم الاقتصاد بنفسه على نحو ثابت أو

## علم الاقتصاد... سؤال في الجواهر

مستقر، وهو لا يتحكم بنفسه دون أن يعيش حالات حرجة كالتى نعيشها اليوم. إن علم الاقتصاد. وهذا ربما حال العلوم جميعها. يهدف إلى خفض الخطر والتحكم فيه؛ ولكن من منا في هذه الأيام يحس بأن الخطر قد تقلص وان التحكم بحياتنا تتم إدارته من خلال علم الاقتصاد؟

يمكن للمرء أن يلاحظ، على العكس، أن علم الاقتصاد يميل إلى مفاقمة شعورنا بأننا عرضة للصدفة. وإذا ما عدنا إلى السؤال السابق حول الأفضلية بين الإنفاق والادخار في الوقت الحاضر، فربما تكون الإجابة الاقتصادية الصحيحة كما يلي: يعتمد ذلك على تحديد ما هو في مصلحتك منهما. فمن الأفضل في بعض الأحيان أن تنفق، وأحياناً أن تدخر. ما عليك غير أن تحسب ما هو الأفضل لك الآن، وفي خضم هذا ينبغي أن تتحلى بالمرونة لأن الحسابات قد تتغير وعليك أن تكون جاهزاً للبدء بالادخار وإيقاف الإنفاق. والعكس بالعكس.

تكمن المشكلة، رغم ذلك، في أن الناس ينظرون إلى الآخرين ليروا كيف يجرون حساباتهم، وفي الواقع ينبغي عليهم أن يتصرفوا كذلك كي يعرفوا كيف يجرون حساباتهم هم على النحو الصحيح. فما هو في مصلحتك يتعرض للتشويش مع ما يظن الآخرون بأنه في مصلحتهم، وهكذا تصبح حساباتك مشتركة، ولا تعود خاصة بك. عند شراء الأسهم، كما يقول عالم الاقتصاد البريطاني جون كينز: «عليك أن لا تفكر بمن هي الفتاة الأجمل وإنما من هي الفتاة التي يعتقد معظم الناس بأنها الأجمل». هكذا تتحدد مصلحتك الاقتصادية من خلال الرغبات الجماعية: من خلال الجشع والخوف؛ ومن هنا تتولد أزمات الإفراط في قدر أمر ما أو الانتقاص منه، والحسابات الخاطئة المبنية على تنبؤ فاسد.

يرغب خبراء الاقتصاد في أن يكونوا قادرين على التدخل كي يحولوا دون وقوع أزمات كذلك؛ وملاحظتهم لمصلحتك الاقتصادية الشخصية تنصحك بالتخلص من خوفك وجشعك كليهما، وهذا لا يعني غير أن تشتري الأسهم بسعر منخفض حين يكون الجميع

## علم الاقتصاد... سؤال في الجواهر

خائفين. وتبيع بسعر عال حينما يكونون جشعين. إن الخوف والجشع ليسا في صالحك. ومع ذلك يتبين من تكرر الأزمات أن استشارة مصلحتك لا يؤدي إلى توقفها. فالسوق شديد الهشاشة والتعقيد إلى حد لا يمكن معه التحكم فيه. ومصلحتك شديدة الخصوصية والغموض إلى حد يجعلها بعيدة عن التحديد. وإذا ما سعت لمصلحتك الشخصية ووضعت هدفا عاما لك بتجنب السقوط تحت تأثير الصدفة فستجد نفسك تتخبط في الخوف والجشع. وبالتالي تصبح أكثر عرضة للصدفة. وليس بمقدور الحكومة أن تتجنب هذه النتيجة بشكل يفوق ما يقوم به الفرد؛ فهذه هي الحالة الشائعة للحياة المتحضرة في عصرنا هذا.

ومن هنا تميل تنبؤات خبراء الاقتصاد إلى إعطاء انطباع بأن الاقتصاد يقبل التنبؤ. وبالرغم من أن خبراء الاقتصاد أناس أذكى على ثقافة عالية وذوو علاقات واسعة ويعملون برواتب عالية في معاهد مرموقة. فإنهم نادرا ما يصلون إلى المناصب العليا. وإنما يكونون في العادة كبار مستشاري أصحاب المناصب العليا. ومن هنا يبدو أنهم على علم بما يقومون به؛ فهم يعطون الثقة في تنبؤاتهم التي ما تكون غالبا أو دائما مجرد تقديرات. إلا في الحالات التي لا تكون فيها التنبؤات تقديرات. كما هو الحال في الأزمة الحالية. فحينها تكون تلك الثقة مكشوفة بما فيها من مغالاة تؤدي إلى المفاجأة وخيبة الأمل. من الطبيعي أن لا نتفاجأ بأوهام الحشود والغوغاء. فمن لا يعلم بأن هؤلاء ليست لهم مصداقية؟ ولكن أن تُدعم تلك الأوهام ويعلى شأنها من قبل علماء لهم موقعهم ورصيدهم المتميز بين خبراء الاقتصاد ربما يؤدي بسهولة إلى هز ثقتنا بمصداقية نخبنا وقد يتعدى الأمر إلى حضارتنا العلمية.

إن الثقة المفرطة بالتغلب على الصدفة هي طريقة الحياة التي ينصح بها خبراء الاقتصاد. إنها طريقة الحياة التي يدعوها الليبراليون «بالتقدم» والمحافظةون «بالنمو». وهذان الاتجاهان يتوحدان سرًا بالثقة المفرطة بما يمتلكانه من معلومات عن المستقبل الذي يصفانه بشكل متنوع ويدعوونه بأسماء مختلفة. إن هذه الثقة المفرطة التي ينصح

## علم الاقتصاد... سؤال في الجوهر

بها تؤدي إلى تحويل تنبؤات خبراء الاقتصاد إلى نصيحة شاملة. لا نصيحة متعلقة بشرط ما مثل: إذا أردت أن تصبح غنيا فافعل هذا. وإنما نصيحة حول كيف تعيش وتصبح غنيا. ولا شك في أن علم الاقتصاد أصبح يعرف بأنه العلم المتشائم الذي يواجه ضروريات حياة الإنسان بحقيقة شح الموارد. وباستخدام نظريات ازدياد أعداد السكان كنظرية مالتوس. قد نصل إلى استنتاج بأننا لن نحصل على القدر الذي نحتاج إليه. ولكن هذا العلم. سواء أكان متشائما أو واعدًا. يمكن أن يوصف بأنه علم منتصر أو متعجرف لما يدعيه من قدرة على التنبؤ.

أما الآن. فالعواقب الأساسية للعيش بحياة الثقة المفرطة فتتمثل في أن نصدق بأن الفضيلة غير ضرورية. وربما يكون هذا الأمر هو السبب الأساسي لهذه الحياة كما هو العاقبة الأساسية لها. إن الفضيلة هي قيمة مقرونة بالحظ إذ قد لا تمتلكها أو تقدر على العمل وفقها. وهي تبدو أقل تعويلا عليها من المصلحة الذاتية بحليفيها الخوف والجشع. إن الجميع لديه مصلحة ذاتية. لكن هذا لا يصح بخصوص الفضيلة. ولكن. على الأقل. لا تعتمد الفضيلة على التنبؤ بالمستقبل: بل على العكس. تشكل الفضيلة موردا للجميع في أوقات المحن: لجوعاً إليها. وتمجيذا لها. واستعادة لها. وعلى رأس ذلك كله تحميك الفضيلة من أن تفسدك الثروة الحلال أيضا. وهذه هي الحقيقة العظيمة التي كان يبشر بها الفلاسفة الرواقيون الذين كانوا يعتقدون بأن الإنسان الحكيم لا يسمح لنفسه بأن يتأثر بحوادث الحياة سواء أكانت مؤلمة أم سعيدة.

الفضيلة عادة. وليست حسابات. إنها تعكس حقيقة أن بني البشر يعيشون في نمط عام من الحياة بطرق مختلفة: إذ ليس من الممكن لنا. أو لمعظمنا. أن نعيش حياة تتصف بالمرونة الكاملة. وأن يكون مستعدا دائما لأن يحسب مجددا في ظروف مستجدة ما هو في مصلحته أن يفعله. وهكذا فإن النمط المثالي الذي يطرحه خبراء الاقتصاد عن مصلحة ذاتية محسوبة هو نمط ليس ممكنا على الصعيد البشري: إذ إننا نتعود على كوننا منفقين أو مدخرين. ولا يمكننا بعدها أن نغير سلوكنا عندما تتغير مصلحتنا. ففي

## علم الاقتصاد... سؤال في الجوهر

الواقع ليست نفوسنا مستقلة عن طرق حياتنا. وليس من الممكن أن تحسب مصلحتك الذاتية دون أن تعرف نهجك في الحياة.

يجب على علم الاقتصاد أن يتوقف عن محاولته تفادي المسؤولية عن نصائحه. إن عليه أن يتفحص الحياة بأكملها ويركز على فضيلة أو فضائل الطرق المختلفة في الحياة. وينبغي عليه أن يترك الحديث عن «التفضيلات» وكأن الرغبات البشرية حقائق ثابتة لا تتأثر بعلم الاقتصاد. ويجب عليه أن يهجر اليقينية الفجة التي تدعي بأن المرء قادر على أن يدرس الحقائق دون أن يعطي النصائح. أو أنه يستطيع أن يتنبأ بثقة دون أن يجعل الناس مؤمنين بتوقعاته. إن علم الاقتصاد بحاجة إلى أن يستبدل بتواضعه الزائف اعتدالا حقيقيا.